مدينة تنس ثغر الأندلسيين
ومحطة تجارتهم وعبورها إلى بلاد المغرب الإسلامي

د. مطهري فطيمة
قسم التاريخ جامعة أبو بكر بلقايد تلمسان

تقديم:

لا شك أن ازدهار العمران الذي اتسمت به الحضارة الاسلامية اعتمد في أسسه على الازدهار الاقتصادي عموما والتجاري خصوصا، فالنشاط التجاري و المبادلات التجارية كانت تعبر عن مشهد تطور المدن وانتشار واتساع المسالك التجارية البرية والبحرية، و هذا ما أشار إليه ابن خلدون في ابرازه لعلاقة التطور العمراني بأحوال السكان الاجتماعية والازدهار الاقتصادي بقوله: "ومتى عظم الدخل والخرج اتسعت احوال السكان ووسع المقر".

لقد تظافرت عدة جهود وظروف فساهمت في إنشاء المدن الساحلية في المغرب الأوسط وعلى رأسها مدينة تنس إذ كانت تمثل منطقة عبور ليس بين المغرب الأوسط والأندلس فحسب بل بين المغربين الأوسط والأدنى وهذا ما أكده اليعقوبي فالمنفذ البحري يمتد من ميناء تنس إلى الأندلس ومنه أيضا الى طبرقة ثم إلى تونس وهناك توزع البضائع برا نحو المدن الداخلية الأخرى.

لقد أصبحت مدينة تنس محطة تجارية هامة وأكبر المدن التي يتعدى اليها الأندلسيون بمراكبهم ويقصدونها ببضائعهم وينهضون إليها ومنها إلى ما سواها.

فما أهمية و إسهام هذه المدينة في تنشيط الحركة التجارية بين ضفتي المتوسط؟ وهل كان لهذا التبادل التجاري تأثير على التواصل والتمازج الثقافي و الحضاري عموما.

و قبل التعرض لنشاط مدينة تنس التجاري و إسهامها في تنشيط الحركة التجارية بين ضفتي المتوسط علينا إبراز أهمية موقع تنس و نشأتها و نموها.

أولا- أهمية موقع مدينة تنس

مدينة تنس: بفتح التاء والنون وهي آخر افريقية مما يلي الغرب بينها وبين مدينة وهران ثمانية أيام ، ومليانة في جنوبها على ثلاثة أيام ، وقيل أربعة وبينها وبين تيهرت خمس مراحل أو ست[1].

لا يختلف اثنان أن أهمية موقع مدينة تنس له علاقة وطيدة بأهمية الموقع الجغرافي لبلاد المغرب الاسلامي كله، خاصة في جناحيه الغربي و الشرقي، فلا حاجز يفصل سهول المغرب الأدنى و

المغرب الأوسط عن شواطئ البحر المتوسط من جهة، و صقلية و بلاد الأندلس من جهة ثانية إلا ساعات قليلة، و قد تميزت المدن الواقعة على ضفتي المضيقين بنشاط تجاري قديم[2].

إضافة على ذلك فإن الحوض الغربي للمتوسط يتصل بأوسع منطقة جغرافية و الصحراء، و قد كان لهذا الموقع الجغرافي الخاص أثر بالغ في تطور المسالك و الطرق التجارية جنوبا- شمالا، و غربا- شرقا، و في ازدهار التجارة خاصة ذهب السودان و العبيد[3]، و كانت المدن الساحلية عبارة عن مخازن للبضاعة.

و من خلال وصف الجغرافيين و الرحالة للمجال الجغرافي لمدينة تنس نستنتج أهمية موقعها، و منهم ابن حوقل الذي يصفها بقوله: "كانت تتوزع بين سهل و جبل و هي مسورة، حصينة بينها و بين البحر ميلان، داخلها قلعة صعبة المرتقى... من الخصب في جميع الرفهة هكذا بأمر مستفاض"[4].

أما البكري فيقول عنها: "تنس بينها و بين البحر ميلان و هي على نهر يسمى تناتين يأتيها من جبال على مسيرة يوم يأتيها من القبلة و يستدير بها من جهة الشرق ويصبّ في البحر"[5].

وفي وصف كامل لها على لسان البكري ونقل ابن حوقل ما يلي: "هي مدينة مسورة حصينة داخلها قلعة صغيرة صعبة المرتقى ينفرد بسكناها العمال لحصانتها وبها مسجد جامع وأسواق كثيرة وهي على نهر يأتيها من جبال على مسيرة يوم من جهة القبلة ويستدير بها من جهة الشرق ويصب في البحر وتسمى تنس الحديثة أسسها وبناها البحريون من أهل الأندلس منهم الكركدن وأبو عائشة والصقر وغيرهم وذلك سنة 262هـ (في دولة بني رستم) وسكنها فريقان من أهل الأندلس من أهل البيرة وأهل تدمير..."[6].

فالمدينة إذن محصنة بريا و متصلة بالبحر عن طريق الواد، و مما زاد من حصانتها وجود السور الذي يحميها والواد الذي يعيق من يريد الهجوم عليها[7]، فهذا الموقع المحصن جعل التجار يتخذونها مكانا لإقامتهم و نشاطهم، فأقاموا بها مدينة حديثة تميزت بأهمية تجارية منفردة في العصور الوسطى[8].

لقد أشارت المصادر الجغرافية وبصورة واضحة لموقع تنس في الخريطة الاقتصادية للمغرب الأوسط نتيجة علاقاتها بمختلف الحواضر، ومنها مثلا الطريق الذي يربطها بقلعة أبي طويل مرورا بالمسيلة[9] ووصولا إلى مدينة غدير وأورّا ثم إلى سوق هوارة ومنها إلى سوق كرام على نهر الشلف، ثم إلى مليانة[10] فمدينة الخضراء الكثيرة البساتين، وبعدها مدينة واريفن الواسعة والكثيرة الكلأ، ثم مدينة قارية ذات الأعين الكثيرة في سفح الجبل، وصولا إلى مدينة تنس، ومن أراد الذهاب إلى تيهرت يمرّ على

مدينة الغزة ثمّ تاجموت على مضيق مكناسة، إلى عين الصبحي في سند جبل مطماطة إلى تاغريت وصولا إلى تيهرت، ومن المدن القريبة إلى تنس مدينة الخضراء خرّار بها قبائل مدغرة وبنو دمّر ومديونة وبنو واريفن.

كما يشير الإدريسي إلى الطريق الرابط بين تنس وتلمسان في سبع مراحل تخرج من تلمسان إلى قرية العلويين، إلى قرية بابلوت إلى رحل الصفصاف، إلى المعسكر إلى يلل ثم إلى مدينة الغزة، ومنها إلى سوق إبراهيم ومنها إلى باجة وصولا إلى تنس[11].

ثانيا- نشأة مدينة تنس و مراحل تطورها

كانت عمليات الذهاب و الاياب بين موانئ المغرب الأوسط و موانئ الأندلس لا تتوقف، هذا النشاط أدى إلى مشاركة الأندلسيين حتى أنهم شكلوا جماعات هامة من سكان موانئ المغرب الاسلامي فقد كان أكثر تجار "بونة" (عنابة) مثلا من الأندلسيين[12]، كما قام البحارة الأندلسيون بإنشاء مدن و ثغور على طول ساحل المغرب الأوسط واستقرت بها جاليات أندلسية و من بين هذه الثغور، مدينة تنس التي أنشأت في 262هـ/ 875م، و هي أكبر المدن التي يتعدى إليها الأندلسيون بمراكبهم و يقصدونها بمتاجرتهم و ينهضون إليها منها إلى ما سواها[13]، و بذلك أصبحت محطة تجارية هامة[14]، و مدينة وهران التي استوطنها اثنان من رجال الدولة الأموية هما محمد بن أبي عون و محمد بن عبدون سنة 290هـ واستوطنتها قبيلة نفزة و بني مسغن[15].

كانت مدينة تنس تتألف من مدينتين: تنس القديمة التي ترجع إلى العهد الروماني و فيها يقول البكري: "و على البحر حصن يذكر أهل تنس أنه كان القديم المعمور قبل هذه الحديثة"[16]، و تنس الحديثة التي يقول عنها أيضا: "بها مسجد جامع و أسواق كثيرة و بها حمامات، و تنس هذه هي التي تسمى تنس الحديثة"[17].

إن أهمية مرفأ تنس في التبادل التجاري البحري كان سببا في نشأتها، ففي بداية أمرها كانت سوقا، بدأ ينمو ويجذب إليه الوافدين، و يبدو أن الأرباح التي حققتها القبائل المجاورة هي التي أدت إلى دعوة التجار الأندلسيين إلى قلعة تنس لكي يتخذوها سوقا، و يجعلوها سكنى[18]، و وعدتهم بالعون و الرفق وحسن المجاورة، وهذا ما أكده لنا البكري بقوله: "...فاجتمع إليهم بربر ذلك القطر ورغبوهم في الانتقال إلى قلعة تنس وسألوهم أن يتخذوها سوقا ويجعلوها مسكنا و وعدوهم بالعون وحسن المجاورة فأجابوهم وانتقلوا إلى القلعة وانتقل إليهم من جاورهم من أهل الأندلس..."[19] ، إنّ الملاحظ من هذا القول هو دور البربر في بناء المدن ومدى اهتمامهم بالبقاع المهجورة القابلة للعمارة و استمالة

الناس إلى الإقامة فيها بإحسانهم ومعروفهم وحسن جوارهم، فحسن علاقة البادية بالمدينة هو عامل مهم في تطور المدينة[20]، و لما كان التجار أنفسهم بحاجة إلى قاعدة آمنة ينزلون بها، فقد قبلوا و لبوا دعوة القبائل و نزلوا القلعة وخيموا بها و انتقل إليهم من جاورهم من أهل الأندلس[21]، و أهل البيرة و أهل تدمير التي تصلها المراكب المقلعة من تنس في يوم و ليلة[22]، و كان منهم الكركني و أبو عايشة و صهيب[23].

لا شك أن الرخاء الاقتصادي انعكس إيجابا على عمران تنس، فكان مثلا الدافع إلى انتقال أهل سوق ابراهيم[24] و كانوا في أربع مائة بيت و تعاونوا على البنيان و اتخذوا الحصن الذي بها، و عرفت المدينة في هذه المرحلة اتساعا من حيث النسيج العمراني، و ازدهرت تجارتها، الأمر الذي جعل منها محطة مهمة على المسالك البرية، و الطرق البحرية خلال فترة العصور الوسطى.

و يذكر البكري أنه كان للمدينة في زمانه أبواب: "و لها بابان إلى القبلة باب البحر و باب ابن ناصح و باب الخوخة في الجانب الشرقي توجد عين غزيرة المياه تعرف بعين عبد السلام وهي عذبة[25]، وقال عنها ابن حوقل أنها مدينة فوق الصغيرة[26] و يعتبرها الاصطخري أنها مدينة كبيرة[27].

حكمت مدينة تنس أسرة ابراهيم التي تنتمي إلى الأشراف السليمانيين، دانت لسلطان الأمويين في الأندلس، ويذكرهم البكري بقوله: "...وأصحاب تنس من ولد إبراهيم بن محمد بن سليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وكان هؤلاء البحريون من أهل الأندلس يشتون هناك إذا سافروا من الأندلس في مرسى على ساحل البحر..."[28] ، ثم تناوب على حكمها منذ القرن الرابع الهجري (10م) عدة دول كانت تتنازع حكم المغرب الأوسط و هي العبيديون، و لما انتقل المعز إلى مصر، استول عليها بلكين بن زيري من صنهاجة، و ملكها كغيرها من أمصار المغرب الأوسط ثم ملكها المرابطون فالموحدون إلى أن حكمها بنو منديل أمراء مازونة في القرن السابع الهجري (13م)، و لما قام الحكم الزياني بتلمسان استولى عليها السلطان عثمان الذي استلحم مغزاوة و عفا رسمهم و قطع ملكهم، و في النصف الثاني من القرن التاسع الهجري (15م)، استقلت عن السلطة المركزية بسبب النزاع بين أفراد الأسرة الزيانية، فخضعت لفرع منها بادئ الأمر ثم ملكها شيوخ من أهلها و حافظت مدينة تنس على علاقتها الخارجية خاصة مع الأندلسيين خلال فترة حكم الدولة الموحدية، و أما في العهد الزياني فقد تعرضت إلى حروب عديدة مما كان له تأثير سلبي عليها.

ثالثا- رواج و نشاط نس التجاري مع الأندلس و دول الجوار

يعتبر الحوض الغربي للبحر المتوسط من أبرز المراكز الاستراتيجية و الحساسة في تمتين التواصل بين البلدان المطلة عليه شمالا و جنوبا، لذلك عرف صراعا عسكريا حادا و تنافسا سياسي

شديدا منذ العصور القديمة، لكن هذا الصراع لم يؤثر كثيرا في المبادلات التجارية بين بلدان هذا الحوض مما أدى إلى اشتداد التنافس في الميدان التجاري بين تجار هذه الدول[29].

و من هنا يمكن تحديد ثلاث مناطق تجارية أساسية و هي:

- **المنطقة الأولى:** افريقية و أبرز مراكزها القيروان

- **المنطقة الثانية:** فهي منطقة المغرب الأوسط، و تتصل المسالك التجارية فيها بمدينة تيهرت، و هي مركز تجاري حساس يربط مسالك الصحراء بالأندلس و جزر البحر المتوسط عن طريق ميناء تنس و حلقة وصل أساسية في التبادل التجاري بين المغرب و المشرق.

- **المنطقة الثالثة:** و هي بلاد المغرب الأقصى بواجهتيها البحريتين المحيط الأطلس، و واجهة البحر المتوسط[30].

كما عرفت الواجهة الساحلية للمغرب الأوسط بداية من القرن 3هـ/9م، نشاطا تجاريا هاما بفضل قيام الملاحة الأندلسية بتأسيس عدة مدن و موانئ على الساحل و تخصص هؤلاء في شراء منتوجات المغرب و بيعها في الأندلس بعدما تمكنوا من بناء مدن تنس، و وهران، و مرسى الحجاج، كما يعود الفضل في هذا النشاط التجاري إلى سياسة خلافة قرطبة التي اهتمت بربط الأندلس ببقية العالم الاسلامي تجاريا[31].

و كذا بحكم العلاقات السياسية الطيبة و التقارب الودي بين الرستميين في تيهرت و الأمويين في الأندلس بسبب مصالحهم و العدو المشترك[32].

فقد قدمت الدولة الرستمية تسهيلات للتجار الأندلسيين ففتحت أمامهم الطريق إلى الجنوب لبيع منتجاتهم المختلفة التي تحققت بفضل تطور الزراعة و الصناعة و حاجاتهم إلى المواد الخام من مختلف البلدان الاسلامية خاصة الدول الواقعة جنوب المغرب الأوسط، و قد سهل لهم الرستميون جميع الطرق و على رأسها ميناء تنس لاستقبال البضائع الأندلسية، فمثل بذلك الرستميون دور الوسيط التجاري في عملية نقل المنتجات الأندلسية و تسويقها في البلدان الجنوبية كالسودان الغربي، و مصر و المشرق العربي[33].

لقد ذكر الاصطخري أهمية تنس التجارية: "و أما تنس فهي كبيرة و هي عدوة الأندلس"[34]، ويؤكد قوله صاحب الاستبصار بقوله: "هي رخيصة الأسعار و منها يحمل الطعام إلى الأندلس[35].

و كان انتاج تنس من الحبوب و الفواكه المختلفة يفيض عن الحاجة المحلية، لهذا كان يحمل منها إلى الأندلس وافريقية و المغرب الأقصى و حتى إلى الجنوب و المشرق الاسلامي عن طريق تيهرت[36].

إنّ وجود مدينة تنس ضمن أقاليم مختلفة وأعمال ومزارع متنوعة، وفّر لها كثرة المحاصيل وتنوّعها ومنها الحنطة وسائر أنواع الحبوب والسفرجل الطيب المعنق ما يفوت الوصف في كبره وحسنه حيث يصل إلى القيروان، فكانت تشتهر بكثرة الزرع والعسل[37] وبالتالي رخص الأسعار وحملها إلى الأندلس وإلى سائر بلاد افريقية والمغرب وحتى المشرق.

إنّ بروز و رواج تجارة تنس مع الأندلس، لم يكن بسبب وفرة المنتوجات الزراعية بأسواق تنس ورخصها فحسب، بل أيضا نتيجة لنشاط التجارة في تيهرت[38].

و رغم ظهور مرافئ و منافذ عدة على الساحل مثل مرفأ جزيرة مزغنة[39] و وهران التي يقلعون منها إلى الأندلس في يوم و ليلة[40]، و مرسى الحجاج و مرسى فروخ (الفروخ) الذي قال عنه اليعقوبي: "ترسى به مراكب تاهرت"[41]، إلا أن الحركة التجارية كانت أنشط في ميناء تنس، فكان منفذ تيهرت على البحر يتم عن طريق ميناء تنس لقول اليعقوبي: "إن المسافرين من افريقية إلى جزيرة الأندلس تركب البحر في يوم و ليلة حتى يصير إلى بلد تدمير"[42].

و يظهر أن هذا الطريق البحري الرابط بين تنس و الأندلس له ميزاته الخاصة مقارنة بالموانئ الأخرى، إذ أنه يقلص المسافة إلى يوم و ليلة، و كان يستعمل في فصول معينة من السنة و بخاصة في فصل الصيف، حيث تسكن أمواجه، التي تشكل عائقا في فصل الشتاء مما كان يضطر البحارة الأندلسيين أن يشتوا في تنس[43].

إن أهمية مدينة تنس التجارية لم تقتصر على ربط الأندلس بالمغرب الأوسط فقط و إنما ربطت أيضا بين المغرب الأوسط و الأدنى و الأقصى و حتى مع المشرق العربي بحيث أشار اليعقوبي إلى الطريق البحري الذي يمتد من تيهرت إلى تنس و منه إلى طبرقة ثم إلى تونس، و هناك توزع البضائع برا نحو المدن الأغلبية الداخلية[44]، و يشير الاصطخري إلى أن تجار تيهرت كانوا يستعملون مرسى نكور لأنه بينه و بين تيهرت عشرون مرحلة، فكانت الطريق المتجهة نحو سجلماسة تمر عبر أوزكا التي يقطنها فخذ من زناتة أو عبر فاس أو عبر نكور[45].

أما عن السلع و البضائع، فحتما ما كان ينقل بين تيهرت و الأندلس كان يمر عبر ميناء تنس فكانت تصدر إلى الأندلس مواد غذائية كالحبوب و اللحوم و الأغنام و الغلال و الصوف و التمور وبعض سلع بلاد السودان كالعبيد والعاج و الذهب[46].

و كانت تستورد بالمقابل مواد و بضائع كثيرة نذكر منها: الحديد، الكتان، الرصاص، النحاس الذي اشتهرت بع مدينة البيرة، أو من طليطلة الصمغ و الزعفران، و من ألميرية الحرير، و من مدينة تدمير ونواحيها الياقوت الأحمر و الزئبق و الكبريت، و يذكر ابن شباط أن هذه المعادن كانت تسفن إلى

جميع الآفاق من البيرة[47]، إضافة إلى الخدم الصقالبة، والجواري الروميات و الأندلسيات و القطن وقصب السكر.

و حتى البضائع و السلع التي كانت تأتي من المشرق إلى تيهرت ثمّ تنقل إلى الأندلس كانت تمر عبر تنس بحكم علاقات تيهرت القوية بالمشرق، فقد كانت القوافل تجوب المسالك الرابطة بين المغرب و المشرق ذهابا و إيابا، فمن بغداد و البصرة كانت تأتي القوافل و تمر على الأنبار و هيت و الرقة و حران و الرها وحلب و دمشق و الرملة و الفوسطاط والاسكندرية، و منها إلى برقة ثم إلى تيهرت التي كانت تغص بالكوفيين و البصريين و القرويين إلى درجة تسميتها بعراق المغرب[48]، و هذه السلع كانت تنقل إلى الأندلس عبر معبر تنس.

و دليل التعايش الحضاري والرواج التجاري بين مدينة تنس وغيرها من حواضر المغرب والمشرق الإسلاميين، ذلك التنوع في المكاييل والأوزان التي كانت مستعملة في تنس وهذا ما أشارت إليه المصادر فهذا البكري يقول:"...ولم يزل الباقون في تنس في تزايد وثروة وعدد ودخل إليهم أهل سوق إبراهيم وكانوا في أربعمائة بيت فوسع لهم أهل تنس في منازلهم وشاركوهم في أموالهم وتعاونوا على البنيان واتخذوا الحصن الذي فيها اليوم ولهم كيل يسمونه الصحفة وهي ثمانية وأربعون قادوسا والقادوس ثلاثة أمداد بمد النبي ﷺ ورطل اللحم بها سبع وستون أوقية ورطل سائر الأشياء اثنتان وعشرون أوقية ووزن قيراطهم ثلث درهم عدل بوزن قرطبة[49].

رابعا- تأثير التبادل التجاري على التواصل الحضاري و التمازج الثقافي

لقد أثرت فعلا الروابط الاقتصادية و التجارية على التواصل الحضاري عموما و الثقافي خصوصا، خاصة إذا علمنا تلك العلاقات السياسية و الثقافية الطيبة التي كانت تربط مدينة تيهرت بالدولة الأموية في الأندلس[50].

فكانت الجهات الأكثر ازدهارا في الأندلس هي المنطقة الجنوبية الشرقية أي الجزء المواجه للبحر، والمقابل لبلاد المغرب، و من أبرز المدن التي شهدت تطورا كبيرا في هذه المنطقة مدينة ألميرية، التي يوجد بها أهم الموانئ النشيطة، و كذا مرسى الجزيرة الخضراء، و بجانة و شاطة و غيرها من الموانئ الأندلسية الممتدة على الساحل الجنوبي الشرقي في ذلك الوقت، و كانت السفن التجارية تجوب السواحل محملة بالتجار والعلماء و السياسيين، و المسافرين و البضائع بما فيها تلك الكتب و المؤلفات الأدبية و العلمية و التحف الفنية و غيرها[51].

لم يكن الجانب الثقافي و الفكري بمنأى عن الجوانب الأخرى الاقتصادية و السياسية، فقد عرف التبادل والتمازج الثقافي بين الضفتين نشاطا كبيرا، و على الرغم من العداء السياسي بين بني أمية في الأندلس و العباسيين في المشرق، إلا أن الأمراء الأمويين أبدوا رغبة في ربط إمارتهم بتيار الحضارة العربية الاسلامية في المشرق، و بفضل مدينة تيهرت همزة الوصل بين المشرق و الأندلس ثم مدينة تنس الثغر الأندلسي و المرفأ الذي ضمن استمرار التدفق الحضاري الاسلامي نجح الأمويون في الحصول على ما يحتاجونه من كنوز المعرفة من المشرق العربي و مؤلفاته و مخطوطاته وعلمائه[52].

كان التبادل الثقافي نشيطا و خاصة أن الأندلس قد اشتهرت بحركية ثقافية كبيرة، و من أمثلة العلماء الذين جلبوا مختلف العلوم من المشرق إلى الأندلس مرورا بتيهرت ثم تنس نذكر:

* الغازي بن قيس الأندلسي الذي أدخل "الموطأ" من مالك بن أنس.
* زياد بن عبد الرحمن اللخمي الذي أدخل الموطأ و قراءة نافع.
* عباس بن ناصح الذي أدخل شعر أبي نواس[53].

إنّ مدينة تنس لم تكن بمعزل عن التطورات السياسية الدائرة في المغرب الأوسط، و كذلك الأمر مع مظاهر الحياة الفكرية في المنطقة، فلم يكن غريبا على المنطقة حضور فقهاء وعلماء ساهموا في تطور العلوم، وذلك من خلال الرحلة في طلب العلم والتدريس والتأليف، ثم المشاركة في الحياة السياسية والتفاعل مع مختلف المناقشات العلمية، ومن هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا الحصر: - إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنسي المطماطي المتوفى سنة 680هـ/1281من-محمد بن عبد الجليل التنسي التلمساني المتوفى سنة 842هـ[54].

لقد ساهمت التجارة في عملية التبادل الثقافي بسبب جلب التجار العديد من الكتب مع سلعهم مثل: زكرياء بن بكر بن أحمد الغساني، و سعيد بن حسان بن العلا، و محمد بن عبد الله الغازي، و أبو جعفر بكر بن أحمد الغساني وغيرهم كثير[55].

خاتمة:

من خلال ما تقدم نستنتج أن تأسيس مدينة تنس و تطورها كان بفضل موقعها التجاري والاستراتيجي الذي كان يمثل منطقة عبور بين المناطق الداخلية لبلاد المغرب الأوسط خاصة تيهرت الرستمية، و بلاد الأندلس، و مما زاد من حركتها التجارية وفود السكان من المناطق المجاورة لها و استقرار تجارة الأندلس، و خاصة في فصل الشتاء، فكان تعميرها، و زادت ثروتها و بنايتها و أصبحت من أهم المدن في العصور الوسطى و خاصة في القرون الثلاثة الثاني و الثالث والرابع للهجرة إذ بدأت

أهميتها التجارية تقتصر على التواصل بين الأندلس و المغرب الأوسط خاصة في القرن السابع الهجري بسبب بروز موانئ أخرى منافسة لها مثل تلمسان و سبتة و بجاية.

وصفوة القول أنّ مدينة تنس رغم صغر حجمها ومساحتها فإنّها اختصت بمزايا منفردة، وتميزت بخصائص منقطعة النظير، فقد تمثلت فيها بحق الحراسة والمرابطة واللجوء السياسي أحسن تمثيل، وعاشت أرضها حسن الحوار والجوار والتعايش الحضاري والسلمي، وجسدت الريادة والوساطة التجارية بين مختلف الحواضر الإسلامية، إننا فعلا وجدناها مدينة كبيرة بسمعتها محمودة وممدوحة، رغم ذمّها من طرف البعض ومنهم الشاعر التيهرتي "سعد بن اشكل" والذي أعذر له الكثيرون بسبب ما أصابه فيها من علّة الداء العضال المؤدي إلى الهلاك والفناء، خاصة وأنه كما ذكر كان بعيدا عن مدينته تيهرت وغريبا كئيبا، وأما الشاعر الثاني والذي لم يذكر اسمه، والذي بالغ في ذمّ مدينة تنس فلم يكن له سببا قويا ، غير أنه كان فيها سائلا ولم يقنع بما ناله في هذه المدينة، ومجرد تفكيره في الذهاب إليها للتسول فهو حسب رأينا يدل على ثراء المدينة وغناها من جهة، وعلى طيبة أهلها وحسن معاملتهم للغير وتعاونهم من جهة أخرى، وهذا ما أكدته جلّ المصادر عن المعاملة الحسنة للأندلسيين وأهل سوق إبراهيم والذين كانوا حوالي أربعمائة بيت، فوسع لهم أهل تنس وشاركوهم في أموالهم وتعاونوا معهم في البناء والتشييد ومختلف الأعمال والنشاطات.

و ما نقوله في الأخير ان هذا هو حال المدن و الحواضر الكبرى والمشهورة مثل الكوفة والبصرة والقاهرة فبقدر ما مدحت من طرف بعضهم، ذمّها بعضهم الآخر، فهذه مصر القاهرة الغنية عن البيان مهبط الفراعنة والجبابرة وعظماء الملوك وبيت الحكم ومعدن الآثار الصنائع الغريبة من قديم الزمان قد مدحها الشعراء حتى تظن أنها روضة من رياض الجنّة، وذمها آخرون حتى تظن أنها حفرة من حفر النار، فالذم والمدح لا يكونان غالبا إلا على حسب الأغراض والطبائع والأحوال والأزمان ولا يخلو شيء من مخلوقات الله عموما من كمال ونقص.

الهوامش:

[1]- البكري : المغرب في ذكر افريقية و المغرب، طبعة دي سلان، باريس، د.ت، ص61.

[2]- الحبيب الجنحاني: المجتمع العربي الاسلامي، مطابع السياسة، الكويت، 2005، ص 75- 76.

[1] **الغبريني**:" (644 - 704 هـ = 1246 - 1304 م)أحمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد، أبو العباس الغبريني: مؤرخ، نسبته إلى (غبرى) من قبائل البربر في المغرب. ومولده في بجاية. وتولى قضاءها ومات فيها شهيدا. له (عنوان الدراية في من عرف من علماء المئة السابعة في بجاية ."خير الدين بن محمود، الزركلي الدمشقي ،الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، سنة 2002م، ج1، ص90.

[3]- Marie Lambard : L'islam dans sa première grandeur (8eme 11eme)paris, 1971 ,p155

فاطمة الزهراء بوعمامة: نشاط مدينة تنس التجاري في العصور الوسطى، مجلة حوليات التاريخ و الجغرافيا، الملتقى الوطني الثالث، المدن الجزائرية عبر العصور، العدد 5- 17- 18، جانفي 2011، بوزريعة، الجزائر، جانفي- جوان 2012، ص74.

[4]- ابن حوقل: صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ص78.

5- البكري: المصدر السابق، ص61، سليمان الباروني: الأزهار الرياضية في أئمة و ملوك الإباضية، دار البعث، ط3، قسنطينة 2002، ج2، ص46.

[6]- البكري : المصدر السابق، ص61- 62، ابن حوقل: المصدر السابق، ص78.

[7]- فاطمة الزهراء بوعمامة : المرجع السابق، ص75.

[8]- نفسه، ص نفسها.

[9]- البكري: المصدر السابق، ص59.

[10]- نفسه، ص61.

[11]-الادريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2002، م1، ص 250- 251.

[12]- السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير، العصر الاسلامي، دراسة تاريخية و عمرانية و أثرية، دار النهضة العربية، بيروت، 1981، ص577.

[13]- ابن حوقل: المصدر السابق، ص78.

[14]- نور الدين عسال: الرستميون و علاقاتهم ببني أمية بالأندلس، الخلدونية، كلية العلوم الانسانية و الاجتماعية، جامعة تيارت، عدد خاص بالدور التاريخي و الحضاري لمنطقة تيارت، أكتوبر 2009، ص78.

[15]- البكري : المصدر السابق، ص101.

[16]- نفسه، ص61.

[17]- نفسه، ص نفسها.

[18]- نفسه، نفسها.

[19]- البكري: المصدر السابق، ص62، ابن حوقل: المصدر السابق، ص78.

[20]- فاطمة الزهراء بوعمامة: المرجع السابق، ص75.

[21]- جودت عبد الكريم يوسف: الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط خلال القرنين الثالث و الرابع الهجريين (9-10م)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، د.ت، ص358- 359.

[22]- ياقوت الحموي: معجم البلدان، بيروت، 1957، ج2، ص371.

[23]- البكري: المصدر السابق، ص101.

[24]- سميت نسبة إلى بني ابراهيم، و هو آخر مدن العلويين باتجاه تيهرت و هي في صلب وادي تسلي على نهر الشلف، ابن حوقل: المصدر السابق، ص89، اليعقوبي: البلدان، دار الفكر، بيروت، 1375هـ/ 1995م، ص13.

[25]- البكري: المصدر السابق، ص61.

[26]- ابن حوقل: المصدر السابق، ص89.

[27]- الاصطخري: المسالك و الممالك، تحقيق محمد جابر عبد العال العيني، القاهرة، دار القلم، 1381هـ/ 1961م، ص38.

[28]- البكري: المصدر السابق، ص61، سليمان الباروني: المرجع السابق، ص47.

[29]- فاطمة الزهراء بوعمامة: المرجع السابق، ص73.

[30]- الحبيب الجنحاني: المرجع السابق، ص79.

[31]- Mahmoud Agha bouayed: le port de hunayn, trait d'union entre le maghreb central et l'Espagne au moyen- age, dans relationes de la peniasula lberica con el maghrebs siglos 13eme 16eme, actas del coloqio- Madrid 17- 18 decembre, 1988, p 326 – 327.

[32]- للمزيد عن هذه العلاقات ينظر، نور الدين عسال: المرجع السابق، ص- ص 75- 81، جودت عبد الكريم يوسف: العلاقات الخارجية للدولة الرستمية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص124، ابن خلدون: كتاب العبر، طبعة، يولاق، بيروت، 1968، ج4، ص254.

[33]- محمد عيسى الحريري: الدولة الرستمية بالمغرب الاسلامي، حضارتها و علاقاتها الخارجية بالمغرب و الأندلس 160-296هـ، دار القلم للنشر و التوزيع، الكويت، ط3، 1987، ص187.

[34]- الاصطخري: المسالك و الممالك، المصدر السابق، ص83.

[35]- مؤلف مجهول: الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر و تعليق سعد زغلول عبد الحميد، جامعة الاسكندرية، كلية الآداب، 1985، ص127.

[36]- جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية في المغرب الأوسط، المرجع السابق، ص358.

[37]- الحميري: الروض المطار في خبر الأقطار، تحقيق احسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984، ط2، ص138.

[38]- الاصطخري: المصدر السابق، ص127، و للمزيد عن هذا النشاط بين تيهرت و الأندلس ينظر، نور الدين عسال: المرجع السابق، ص77.

[39]- ذكر عنها المقديسي: "أنها على ساحل البحر مسوزرة يعبر منها إلى الأندلس"، المقديسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، مطبعة بريل، لندن، ط2، 1906، ص228.

[40]- نفسه، ص نفسها.

[41]- اليعقوبي: المصدر السابق، ص353.

[42]- نفسه، ص نفسها، ابن حوقل: المصدر السابق، ص78.

[43]- البكري: المصدر السابق، ص61.

[44]- اليعقوبي: المصدر السابق، ص353.

[45]- البكري: المصدر السابق، ص81، بلحاج معروف: مكانة تيهرت الرستمية في الاقتصاد العالمي، مجلة الخلدونية، المرجع السابق، ص117.

[46]- فاطمة الزهراء بوعمامة: المرجع السابق، ص78.

[47]- ابن شباط: صلة السمط و سمة المرط، قطعة في وصف الأندلس و صقلية، نشر أحمد مختار العبادي، صحيفة معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، 1967، ص102.

[48]- محمود اسماعيل: الخوارج في المغرب الاسلامي، دار العودة، بيروت، 1967، ص207، بلحاج معروف: المرجع السابق، ص117.

[49]- البكري: المصدر السابق، ص61، سليمان الباروني: المرجع السابق، ص47.

[50]- للمزيد أكثر عن تلك العلاقات السياسية الودية ينظر، ابن خلدون: العبر، المصدر السابق، ص254، عبد العزيز فيلالي: العلاقات السياسية بين الدولة الأموية في الأندلس و دول المغرب، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، 1982، ص96، نور الدين عسال: المرجع السابق، ص 75- 77.

[51]- ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس و المغرب، تحقيق و مراجعة ج.س كولان و ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1980، ج2، ص92.

[52]- ابراهيم العدوي: بلاد الجزائر تكوينها الاسلامي و العربي، المكتبة الأنجلو مصرية، القاهرة، 1970، ص220.

[53]- جودت عبد الكريم: الأوضاع الاقتصادية، المرجع السابق، ص169.

[54]- للمزيد عن أثر علماء تنس في خواضر المغرب الاسلامي ينظر، لخضر سعيداني: تراجم لعلماء منطقة تنس و آثارهم الفكرية، أعمال الملتقى الوطني الأول حول الحواضر العلمية بالشلف، حاضرة مجاجة أنموذجا، منشورات وزارة الشؤون الدينية واللأوقاف، فبراير 2015، ص- ص 202- 213.

55- نفسه، ص نفسها، محمد عيسى الحريري: المرجع السابق، ص221.